

أهداف النهضة الحسينية

المناسبة: ذكرى ملحمة عاشوراء الإمام الحسين (ع)

الزمان والمكان: الجمعة 9 محرم 1421 هـ - ق 1379/1/26 هـ ش. طهران

الحضور: جموع المعزّين المؤمنين

الخطبة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، نحمده ونستعينه ونستغفره ونؤمن به ونتوكل عليه، ونصلّي ونسلم على حبيبه ونجيبه وخيرته في خلقه حافظ سره ومبلغ رسالاته بشير نعمته ونذير نقمته سيدنا ونبينا أبي القاسم المصطفى محمد، وعلى آله الاطيبين الأطهرين المنتجبين وأصحابه المخلصين، وصل على بقية الله في الأرضين، وصل على أئمة المسلمين وحماة المستضعفين وهداة المؤمنين. أوصيكم عباد الله بتقوى الله.

أهداف النهضة الحسينية

لقد وردت عبارة في زيارة أربعين الإمام الحسين (عليه الصلاة والسلام) تتطوي على مغزى عميق، وهي جديرة بالتأمل والتدبر كسواها من العبارات الكثيرة الواردة في مثل هذه الزيارات والأدعية، وإنني أودّ اليوم وبمناسبة ذكرى تاسوعاء وعزاء سيد الشهداء التحدّث قليلاً بشأن هذه العبارة في الخطبة الأولى، حيث إنها ناظرة إلى أهداف النهضة الحسينية.

وهذه العبارة هي "وبذل مهجته فيك"¹.

وقد وردت في زيارة الأربعين² التي تأتي فقراتها الأولى على صورة دعاء يناجي به المتكلّم المولى سبحانه وتعالى فيقول "وبذل مهجته فيك" أي الحسين بن علي (عليهما السلام) "ليستنقذ عبادك من الجهالة وحيرة الضلالة".

فهذا هو أحد جوانب القضية وهو المتعلق بصاحب النهضة أي الحسين بن علي (عليه السلام)، وأما الجانب الآخر فيرد في الفقرة التالية التي تقول "وقد توازر عليه

¹ مصباح المتجهّد: 788.

² تهذيب الأحكام: ج6، ص 113. باب (52) الحديث (17).

من غرته الدنيا وباع حظه بالأرذل الأدنى" في وصف للواقفين على الجبهة المضادة، وهم الذين غرّتهم الدنيا بالمطامع المادية والزخارف والشهوات والأهواء النفسية فباعوا حظّهم من السعادة الدنيوية والأخروية بالأرذل الأدنى؛ وهذه هي خلاصة النهضة الحسينية.

وبالتدقيق في هذا الكلام، يدرك المرء أن بإمكانه النظر إلى النهضة الحسينية بمنظارين في الواقع، وكلاهما صحيح، سوى أن مجموعهما يكشف عن الأبعاد العظيمة لهذه النهضة؛ فالنظرة الأولى تكشف عن الحركة الظاهرية للحسين بن علي، والتي قام بها في مواجهة حكومة فاسدة ومنحرفة وظالمة وقمعية وهي حكومة يزيد، وأما باطن القضية وعمقها فتكشف عنه النظرة الثانية، وهي الحركة الأعظم والأعمق؛ لأنها ضد جهل الإنسان وضلالته.

فمع أن الإمام الحسين قام بمقارعة يزيد في الواقع، إلّا أن هذه المقارعة الواسعة التاريخية لم تكن ضد يزيد الفرد الفاني الذي لا يساوي شيئاً، بل كانت ضد جهل الإنسان وانحطاطه وضلالته وذلك، وهو ما يكافحه الإمام الحسين في الحقيقة.

مميزات حكومة النبي الأكرم (ص)

لقد جاء الإسلام بحكومة مثالية، ولو أردنا اختصار قضية الإمام الحسين في سطور لقلنا: بأن الظلم والجهل والعنصرية كانت تسود البشرية؛ فالحكومات الكبرى التي كانت تسيطر على العالم في ذلك الزمان — حكومة قيصر في الإمبراطورية الرومانية وحكومة كسرى في إيران — وكانت تمثل حكومات النبلاء، وهي حكومات غير شعبية وحكومات مفروضة بحد السيف دون الخضوع للعقل والمنطق غايتها نشر الجهل والفساد، وسواها من الحكومات الصغيرة على غرار ما كان في الجزيرة العربية، وغيرها من الحكومات التي كانت تفوقها سوءاً وشرّاً، كانت كلها حكومات جاهلية أخضعت العالم لسيطرتها.

وفي هذه الأثناء أضاء رسول الله (ص) العالم بنور الإسلام، واستطاع بفضل المدد الإلهي والجهاد الجبار والعظيم الذي قام به هو والذين معه أن يبيثّ النور في إحدى مناطق الجزيرة العربية، ثم ما لبث أن عمّها هذا النور الإلهي بالتدريج؛ فعندما رحل الرسول (ص) عن هذه الدنيا كانت الحكومة التي ثبتت عمادها حكومة قوية ومستقرة، يجدر بها أن تكون نموذجاً للحكومات على طول امتداد التاريخ الإنساني، ولو كان الاستمرار قد قُدّر لهذه الحكومة لتغيّر وجه التاريخ بلا ريب، ولتحقق في ذلك الزمان ما

سيحققه إمام الزمان لدى ظهوره بعد ذلك بقرون في عالم يسوده العدل والنقاء والصدق والإخلاص والمحبة، حيث البداية الحقيقية للحياة البشرية.

إنّ الحياة الحقيقية للإنسان في هذا العالم تعود إلى مرحلة ما بعد ظهور إمام الزمان، ويعلم الله ما ستبلغه البشرية من عظمة وازدهار يومذاك؛ ولهذا فإن هذه الحكومة لو كان قد كُتِبَ لها الاستمرار والدوام وظلّت باقية في تلك العصور الأولى، وتغيّر تاريخ البشرية، لكان مصير البشرية قد خطا خطوات واسعة نحو الأمام، إلّا أن هذا لم يحدث للعديد من الأسباب.

إنّ مميّزات حكومة الرسول (ص) أنها كانت قائمة على العدل بدلاً من الظلم، ومستندة إلى التوحيد والتحول حول عبودية الذات الإلهية المقدسة بدلاً من الشرك والتفرقة الفكرية للإنسان، ومبنية على العلم والمعرفة بدلاً من الجهل، وقائمة على المحبة والتواصل والرفق والمدارة بدلاً من عدااء الإنسان للإنسان؛ أي كانت حكومة قوية في ظاهرها وباطنها يشبّ فيها الإنسان في ظلال التقوى والشرف والعلم والبصيرة والنشاط والتحرك والسعي نحو الكمال.

ولكن كل شيء كان قد تغيّر بمرور خمسين عاماً، فلم يبق من الإسلام سوى الإسلام دون المعنى والمضمون، وعادت حكومة الظلم بدلاً من حكومة العدل، وعادت العنصرية والتحزّب والطبقية بدلاً من المساواة والأخوة، وبات الجهل بدلاً من العلم والمعرفة.

لقد كان كل شيء يعود إلى الوراء خلال تلك الأعوام الخمسين، وهناك آلاف الشواهد والنماذج التي تفصح عن هذا الانحدار؛ ويتحمّل الباحثون والمحققون مسؤولية إيضاحها للعقول الشابّة وتبيانها لطلاب الحقيقة.

الفرق بين الإمامة والسلطنة

لقد تحوّلت الإمامة إلى سلطنة مع ما بينهما من تناقض وتفاوت واختلاف وتضاد؛ فالإمامة تعني القيادة الروحية والمعنوية والارتباط مع الناس بالرباط العاطفي والعقائدي، وأمّا السلطنة فتعني حكومة القوة والشدة والخداع بلا أدنى علاقة معنوية أو عاطفية أو عقائدية.

فالإمامة والسلطنة تقفان على طرفي نقيض تماماً.

إن الإمامة حركة بين الأمة من أجل الأمة، ولا تستهدف سوى الخير، بينما تعني السلطنة تلك السلطة المتجبرّة الأخذة بأعناق الناس، والتي تهدر حقوقهم، وتتجاهل مصالحهم من أجل فئة خاصة، وعملاً على ثراء الطبقة الحاكمة وإشباع نزواتها، فالذي

نراه في زمن ثورة الإمام الحسين هي تلك الثانية وليست الأولى، أي أن يزيد الحاكم لم يكن على علاقة مع الناس، ولم يكن من أهل العلم، ولم يكن تقياً ولا نقياً ولا حكيماً، كما لم تكن له سابقة في الجهاد في سبيل الله، ولم يكن يؤمن قدر ذرة بمعنويات الإسلام، ولم يكن يتصرف في سلوكه كالإنسان المؤمن، ولم يكن قوله كأقوال الحكماء؛ أي أنه كان عارياً عن أي شبه برسول الله (ص)، وفي مثل هذه الظروف سنحت الفرصة للإمام الحسين ليقوم بثورته، وهو الإمام الذي كان يجب أن يخلف رسول الله (ص) في أداء مهمته.

إننا لو نظرنا إلى هذه القضية من حيث الظاهر فإن هذه الثورة ثورة على حكومة يزيد الفاسدة واللاشعبية، وأما من حيث الباطن فإنها ثورة من أجل القيم الإسلامية، وفي سبيل العلم والإيمان والكرامة، وبغية إنقاذ الناس من الفساد والانحطاط والجهالة؛ ولهذا فإن الإمام الحسين (ع) لدى خروجه من المدينة كتب وصيته التاريخية لأخيه محمد بن الحنفية والتي قال فيها: "إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي"³.

أبعاد نهضة الإمام الحسين (ع)

فنهضة الإمام الحسين لها بعدان يمكن أن يسفر كل منهما عن نتيجة طيبة. الأول: أن يستطيع الإمام الحسين (عليه السلام) التغلب على حكومة يزيد واسترداد السلطة من يد أولئك الذين يقمعون الناس ويتلاعبون بمصيرهم، ووضع الأمور في نصابها الصحيح؛ فلو كان قد حدث ذلك لتغيّرت مسيرة التاريخ. وأما الثاني: فكان عدم تمكّن الإمام الحسين من إحراز هذا النصر السياسي والعسكري لأي سبب من الأسباب، وعندئذ لم يكن أمامه سوى استبدال القول بالدم والمظلومية، وتحمل الخسارة التي لن ينساها التاريخ على مدى الزمان، لتبقى كلمته تياراً جارفاً لا ينقطع إلى أبد الدهر؛ وهذا هو ما فعله الإمام الحسين.

وفي الحقيقة فلو كان الذين يدعون الإمام قد وقفوا موقفاً آخر غير الذي اتخذوه مع الإمام الحسين لتحقيق البعد الأول للثورة، ولاستطاع الإمام الحسين إصلاح الدنيا والآخرة في ذلك الوقت، ولكنهم قصرّوا في حقه! أما لماذا قصرّوا، وكيف قصرّوا، فإن ذلك من الأبحاث الطويلة والمريرة، وقد تحدّثت عن بعض جوانبه منذ عدّة سنوات تحت

³ بحر الأنوار: ج 44، ص 329.

عنوان "الخواص والعوام"؛ أي مَنْ الذين قَصَّروا، وعلى مَنْ يقع هذا التقصير، وكيف كان، وأين كان؟ وهو ما لا أريد الخوض فيه مرة أخرى.

وعلى هذا الأساس فقد وقع التقصير من البعض وهو ما حال دون تحقق الهدف الأول، بينما تحقق الهدف الثاني، وهو ما لم يكن بوسع أية قوة كانت سلبه من الإمام الحسين، حيث إن قوة التوجّه إلى ميدان الشهادة، والتضحية بالنفس والأعزة، هو ذلك الحدث العظيم الذي تضاعلت وتلاشت أمام عظمته قوة العدو وعظمته، وهو الذي يمنح الشمس المزيد من الازدهار والتألّق يوماً بعد آخر في عالم الإسلام ويحيط بكل البشرية. واليوم، وبعد مرور قرون طويلة، بات الإمام الحسين بن علي والإسلام وأنتم علماء في شتّى أصقاع العالم.

ولقد أصبح الأمر الآن بحيث يشعر المفكرون والمتقنون وأصحاب الرأي المستقل بالخضوع عندما يطالعون تاريخ الإسلام ويقفون على حقيقة قضية الإمام الحسين.

إنّ الذين يجهلون الإسلام لكنهم يدركون مفهوم الحرية والعدالة والعزة والرفق والقيم الإنسانية السامية ينظرون بهذا المنظار فيجدون الإمام الحسين ذروة الإنسانية في الدعوة إلى الحرية والعدالة ومقاومة المساوئ والقبائح ومكافحة الجهل والذل والمهانة.

إنه كلما تلقّى الناس في عالم اليوم، ضربةً — سياسية كانت أو عسكرية أو اقتصادية — فإن الأمر لا يعود إلّا إلى سببين عندما نتتبع جذوره: إما الجهل، وإما المهانة.

أيّ إما أنهم يجهلون ولا يملكون المعرفة الضرورية، أو أنهم يعرفون لكنهم باعوا أنفسهم رخيصة وابتاعوا المذلة ورضوا بالحقارة والدناءة! ولهذا فقد ورد عن أمير المؤمنين والإمام السجاد: "ليس لأنفسكم ثمن إلّا الجنة، فلا تبيعوها إلّا بها"⁴؛ فهذا هو ثمن النفس، وإلّا لبخسها الإنسان حقّها.

كما أنه لا يجوز للإنسان امتلاك الدنيا بأكملها مقابل الرضا بالانحطاط والذلة النفسية.

إنّ الذين استسلموا لأرباب المال والقوة في شتّى أنحاء العالم ورضوا بهذا الذل — سواء منهم العالم أو السياسي أو المتقف أو أصحاب النشاطات السياسية والاجتماعية — لم يكن ذلك منهم إلّا لأنهم لم يعرفوا أنفسهم فباعوها بثمن بخس.

إنّ الكثيرين من السياسيين في العالم قد باعوا أنفسهم، وإنّ العزة ليست هي مجرد اعتلاء عرش السلطنة أو الرئاسة؛ فكم من أصحاب السلطان ينظرون إلى الآخرين بتكبر وخيلاء ويفرضون عليهم منطق القوة، ولكنهم في الوقت نفسه أذلاء وأسرى

سلطة وقوة أخرى أو أسرى الأهواء النفسية، حتى إنّ بعض أسرى السياسة في عالم اليوم لا يصلون إلى تلك الدرجة الثانية، بل إنهم أسرى السلطة والمناصب .. !
إنكم لو ألقيتم نظرة اليوم على هذا البلد الواسع لوجدتم أن وجوه الشباب فيه تطفح بالحبور والسعادة؛ بسبب الشعور بالعزة والاستقلال، وليس بوسع أحد الادّعاء بأن الأجهزة السياسية في هذا البلد تتلقّى أقلّ الأوامر من أية قوة في العالم.
كما أن الدنيا بأجمعها تدري أن هذا البلد الذي يتمتع الآن بالعزة والعظمة كانت تسيطر عليه قبل الثورة حكومة فرعونية مستكبرة، تدّعي لنفسها القوة والعظمة والجبروت، وترى أن على الشعب أن يركع أمامها في ذلّة وخضوع، مع أن أرباب تلك الحكومة كانوا أسرى للآخرين وأذلاء أمامهم! فها هنا في طهران كان بإمكان السفير الأمريكي الالتقاء بالشاه متى شاء وإملاء ما يريد عليه وتوجيه الأوامر إليه، فإذا تخلف عن التنفيذ تغيّر الوضع معه! لقد كان ظاهرهم ينمّ عن الجلال والجبروت، ولكنهم كانوا أذلاء في عيون الشعب والضعفاء! وإن الإمام الحسين كان يريد أن يخلص البشر من هذا الذل.

لقد كان رسول الله (ص) يأكل أكل العبد ويجلس جلسة العبد⁵ لا كمثل النبلاء؛ ومع أن الرسول (ص) كان ينتمي لأسرة من سادات قريش، إلّا أنه كان يتعامل مع الناس بتواضع وينظر إليهم باحترام بعيداً عن الغرور والخيلاء، غير أن أباطرة ذلك الزمان كانوا يرتعدون من مجرد إشارته أو نظرته في السنوات الأخيرة من حياته، وهذه هي العزة.

الموقف الذي خطّه الحسين (ع) في سجلّ التاريخ

فالإمامة هي ذلك الجهاز الذي يضفي العزة الإلهية على الناس، ويمنحهم العلم والمعرفة، وينشر الرفق بينهم والمداواة، ويحافظ على عظمة الإسلام والمسلمين أمام الأعداء.

وأما السلطة والحكومات الجائرة فعلى الضد من ذلك.

إنّ الكثيرين من حكام العالم اليوم لا يسمّون بالملوك، لكنهم ملوك في الواقع، كما أنهم لا يسمّون بالسلّاطين، وتراهم يحافظون على المظاهر الديمقراطية، ولكنها هي السلطنة في الحقيقة، أي التعامل مع الشعب بتجبر، ومع من فوقهم بذلّ ومهانة! حتى إنكم لتجدون رؤساء بعض البلدان القوية والمقتدرة واقعين هم أيضاً بذلّة وقهر في أيدي

⁵ الكافي: ج 6، ص 270. باب الأكل متكناً الحديث، (1).

أصحاب الشركات وبؤر الشبكات العالمية الخفية وتجمّعات المافيا والمراكز الصهيونية ومضطرين للعمل وفقاً لإرادتهم واتخاذ المواقف طبقاً لرغبتهم حتى لا يتضايقوا؛ فهذه سلطنة. وعندما تسيطر الذلّة والمهانة على قمة السلطنة فلا بدّ من وجود الذل والهوان أيضاً في الهيكل والقاعدة، وهذا هو ما ثار ضده الإمام الحسين.

إنّ سلوك الإمام الحسين منذ خروجه من المدينة وحتى يوم استشهاده في كربلاء كان منطوياً على المعنويات والعزة والشموخ وفي نفس الوقت مغموراً بالعبودية والتسليم المطلق لأمر الله، وهكذا كان دائماً وفي كل المراحل، ففي ذلك اليوم الذي جاءت مئآت وربما آلاف الرسائل تحمل نداء القائلين: بأنهم شيعة وأنصاره، وأنهم في الكوفة والعراق بانتظار وصوله، فإنه لم يصب بالغرور، وعندما قال "خطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة"⁶ فإنه كان يتحدّث عن الموت، ولم يهدد الأعداء وينذرهم بالويل والثبور، كما أنه لم يقيم بترغيب أصحابه ولم يقيم بتقسيم مناصب الكوفة بينهم.

لقد كانت حركته حركة إسلامية مفعمة بالعلم والمعرفة والعبودية والتواضع في ذلك اليوم الذي مد فيه الجميع إليه أيديهم وأظهروا له الود والإخلاص، وحتى في كربلاء عندما حاصره ثلاثون ألفاً من الأراذل والأوباش مع أصحابه الذين لم يبلغوا المائة وهددوه هو ومن معه من أعزائه بالموت، كما هددوا نساءه وحرمه بالأسر، فإن هذا الرجل الإلهي والعبد الربّاني العزيز في الإسلام لم تبتدُ عليه ذرة من الاضطراب.

يقول ذلك الراوي الذي ينقل أحداث يوم عاشوراء التي تناقلتها الألسن والكتب "فو الله ما رأيت مكثوراً أربط جأشاً من الحسين"⁷.

فالإنسان يلتقي الكثيرين في ميادين الحرب المختلفة، وفي الساحات الاجتماعية والعروض السياسية، وسواها من المجالات الأخرى التي تضمّ ذوي الابتلاءات المختلفة؛ ولكن الراوي يحكي عن عدم مشاهدته لأحد مثل الحسين بن علي في موقفه هذا، حيث نزلت عليه شتّى المصائب غير أنه واجهها بوجه مستبشر قاطع، مما يدل على قوة العزيمة ورسوخ الإرادة والتوكل على الله، فهذه هي العزة الإلهية، وهذا هو الموقف الذي خطّه الإمام الحسين في سجل التاريخ، فأدرك الناس أنه ينبغي عليهم النضال في سبيل مثل هكذا حكومة، وهكذا مجتمع لا تسيطر عليه الدناءة والجهالة

⁶ بحار الأنوار: ج44، ص 366.

⁷ شرح الأخبار، القاضي النعمان المغربي: ج 3، ص 164.

وفي تاريخ الطبري: ج 4، ص 345: فو الله ما رأيت مكثوراً قط قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جأشاً ولا أمضى جنباً منه.

والخضوع الإنساني والعنصرية؛ فعلى البشر كافة أن يجاهدوا من أجل تحقيق مثل هذا المجتمع، وهو أمر ممكن وسيتحقق.

لقد كان الناس قابعين في ضباب اليأس ذات يوم، ثم جاءت الثورة الإسلامية واستقرت دعائم النظام الإسلامي؛ ليتّضح أن كل شيء ممكن. إنّ النظام الإسلامي لم يبلغ الذروة، لكنه تغلّب على الكثير من العقبات الكبرى في سبيل الوصول إلى تلك المرحلة.

إنّ وجود الحكومة الطاغوتية والنظام الدكتاتوري وحكومة أولئك الذين يستأسدون على الشعب بينما هم نعمة أمام القوى العظمى، والذين يتعالون على شعوبهم كما الفراعنة بينما هم أذلاء وخاضعون للأجانب، يمثل عقبة كئوداً في طريق الشعوب، ولاسيّما إذا كانت تلك الحكومة تحظى بدعم كافة القوى الدولية، ولقد أظهر الشعب الإيراني أن مثل هذا العمل يعدّ ممكناً وبوسعه القيام به، فأزال تلك العقبة واستمرّ في هذا الطريق.

تحقيق أهدافنا في الحفاظ على رسالة الإمام الحسين (ع)

ولطف الله وفضله فإنه تمّ اتخاذ الكثير من الخطوات في هذا الطريق، ولكننا مازلنا في منتصف الطريق أيها الأخوة والأعزاء! فلو حافظنا على رسالة الإمام الحسين حيّة ونابضة، ولو أدركنا العظمة الكامنة في اسم الإمام الحسين، ولو تطلّعنا لهذه النهضة واعتبرناها حدثاً إنسانياً عظيماً على مدى التاريخ، لأعاننا كل ذلك على مواصلة الطريق والتقدم إلى الأمام، وعلى ألاّ نحيد عن درب الإمام الحسين وعلى تحقيق ما رسمناه من أهداف بلطف الله، وسيلبغ الشعب الإيراني آماله إن شاء الله.

لقد جعل الله تعالى اسم الإمام الحسين (عليه السلام) مجلّلاً بالعظمة وحافظ على واقعة كربلاء حيّة في التاريخ.

وإنّ ما قلّته لا يعني أننا نعمل على جعل اسم الإمام الحسين عظيماً، كلاً، فهذا الحدث أعظم من أن تُغطّي عليه كافة أحداث الزمان، أو أن تمحو رسمه من صفحات التاريخ. إنّ اليوم هو تاسوعاء، وغداً يوم عاشوراء، وهو ذروة هذا الحدث العظيم والجليل.

إنّ الحسين بن علي (عليه السلام) لم يتوجّه إلى كربلاء بهدف القتال؛ فالذي يذهب إلى ميدان القتال لابدّ له من الجنود؛ ولكن الإمام الحسين بن علي (عليه السلام) كان قد حمل معه أهل بيته من النساء والأطفال، مما يعني أنّ حادثة ستقع في ذلك المكان،

وستدغدغ عواطف البشرية على طول التاريخ؛ حتى تتضح عظمة ما قام به الإمام الحسين.

لقد كان الإمام الحسين يدري أن أعداءه حقراء وسفهاء، وكان يرى أن الذين جاؤوا لقتاله ليسوا سوى شرذمة من أرذل وأوباش الكوفة، طمعاً في الحصول على عطية تافهة وحقيرة؛ هي التي دفعتهم إلى هذا المسلك وارتكاب مثل هذه الجريمة العظمى، وكان يعلم بما سيحلّ بنسائه وأبنائه.

فالإمام الحسين لم يكن غافلاً عن كل هذا، ولكنه لم يكن مستعداً للاستسلام والعودة عن قراره، بل كان يبحث على مواصلة الطريق؛ مما يدل على أهمية هذا الطريق وعظمة هذا العمل.

شأن ومنزلة أبي الفضل العباس

إنني سأحدث قليلاً في ذكر تلك المصيبة؛ فمع أنكم قدِمتم إلى هنا منذ ساعات وشاركنم في مراسم العزاء كشأن كل المجالس والمحافل في هذه الأيام، إلا أن اليوم هو يوم تاسوعاء، وقد دأب الخطباء وأهل الرثاء فيه على الحديث حول شهادة أبي الفضل العباس.

إنّ الذي يبدو من كافة الشواهد والأدلة هو أن أبا الفضل العباس كان آخر من استشهد قبل الإمام الحسين من المجاهدين، باستثناء الطفل البالغ ستة أشهر من عمره، أو الصبي البالغ أحد عشر عاماً.

وكانت تلك الشهادة فداءً لعمل عظيم أقدم عليه، ألا وهو جلب الماء للعطاشى في خيام أبي عبد الله الحسين. وبالنظر في تلك الزيارات والتمعن في تلك الكلمات الواردة عن الأئمة (عليهم السلام) بشأن أبي الفضل العباس، فإننا نكتشف أنه تمّ تأكيد خصلتين: الأولى البصيرة، والثانية الوفاء.

فأين تكمن بصيرة أبي الفضل العباس؟ لقد كان أولئك جميعاً من أولي البصائر، إلا أنه كشف عن بصيرة أكبر؛ ففي يوم تاسوعاء، أي في عصر مثل هذا اليوم، عندما سنحت له الفرصة للخلاص من هذا البلاء حيث اقترحوا عليه الاستسلام في مقابل إعطائه الأمان، فإنه كان شهماً لدرجة أفحمت الأعداء، وقال لهم: وهل أتخلى عن الحسين؟! الويل لكم! أف لكم ولأمانكم هذا! وثمة نموذج آخر لبصيرته، وذلك عندما أمر ثلاثة من إخوته الذين كانوا معهم بالتقدّم قبله إلى ميدان الحرب والجهاد حتى بلوغ الشهادة.

فإنكم على علم بأنهم كانوا أربعة إخوة من أم واحدة، وهم: أبو الفضل العباس — الأخ الأكبر — وجعفر وعبد الله وعثمان.

فإن يضحّي المرء بإخوته الثلاثة أمام عينيه من أجل الحسين بن علي دون التفكير في أمه المحزونة، أو الاكتفاء بواحد منهم حفاظاً على مشاعر أمه والاهتمام بمصير إخوته الصغار ومن سيعولهم في المدينة المنورة، فهذه هي البصيرة.

وأما وفاء أبي الفضل العباس فقد تجسّد لدى بلوغه شريعة الفرات دون أن يشرب قطرة من مائه؛ فالمشهور على كل الألسنة هو أن الإمام الحسين (عليه السلام) بعث بأبي الفضل لجلب الماء، إلا أن الذي شاهدته من الروايات المعتبرة الواردة في كتب مثل "الإرشاد"⁸ للمفيد، و"اللهوف"⁹ لابن طاووس فُلقد جاء في هذه الكتب المعتبرة أن العطش كان قد اشتدّ بالصبيّة والصبايا وبلغ مبلغه من حرم آل البيت، فذهب الإمام الحسين وأبو الفضل معاً في طلب الماء، وتوجّها إلى شريعة الفرات لعلّهما يحصلان على بعض الماء.

فهذان الإثنان من الأخوة الشجعان والأقوياء كانا معاً دائماً في ساحة القتال، أي الإمام الحسين بعمره الذي يشرف على الستين عاماً، ولكنه لا يشق له غبار في البسالة والقوة، وأخوه الشاب أبو الفضل العباس الذي جاوز الثلاثين بقليل من عمره بما يتميز به من خصال يعرفها الجميع.

فهذان الأخوان لم يفارق أحدهما الآخر في ساحة الحرب، وكان كل منهما يحمي ظهر الآخر عند اشتداد القتال، وتخلّل صفوف الأعداء أملاً في الوصول إلى الفرات وجلب الماء.

وخلال هذه الجولة من المعركة شعر الإمام الحسين فجأة بأن العدو قد فصل بينه وبين أخيه العباس لدى اشتداد القتال؛ وفي هذه الممعنة كان أبو الفضل قد اقترب من الماء ووصل إلى شريعة النهر.

⁸ كتاب «الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد»: للشيخ المفيد أبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان الحارثي البغدادي (336هـ — 413هـ) فيه تواريخ الأئمة الطاهرين الإثني عشر عليهم السلام والنصوص عليهم ومعجزاتهم وطرف من أخبارهم من ولاداتهم ووفياتهم ومدة أعمارهم وعدة من خواص أصحابهم وغير ذلك.

الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ج1، ص509.

⁹ اللهوف على قتلى الطفوف: للسيد جمال السالكين رضي الدين أبي القاسم علي موسى بن طاووس الحلبي (ت 664هـ) مرتب على ثلاثة مسالك: في الأمور المتقدمة على القتال، وفي وصف القتال، وفي الأمور المتأخرة عنه.

الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ج 18، ص389.

وكما جاء في الروايات، فإنه ملاً قربةً بالماء للعودة بها إلى الخيام؛ وفي مثل هذه الحالة يعطي كل واحد الحق لنفسه بأن يروي ظمأه، ولكن أبا الفضل العباس أظهر وفاءه في هذا الموقف الصعب.

فعندما غرف غرفة من الماء ذكر عطش الحسين، وتذكر صيحات: العطش .. العطش .. التي أطلقها الصبية والصبايا، وربما تذكر بكاء علي الأصغر الزمان، فلم يشرب وألقى الماء وغادر الشريعة.

وحينئذ وقعت تلك الأحداث عندما سمع الإمام الحسين (عليه السلام) فجأة صوت أخيه قادماً من وسط جند الأعداء وهو يصيح: "يا أخاه أدرك أخاك".

نسألك اللهم وندعوك باسمك العظيم الأعظم الأعز الأجل الأكرم وبالحسين وأصحابه وأهل بيته يا الله يا الله يا رحمان ويا رحيم، اللهم إنا نتوسل إليك بمحمد وآل محمد أن تتصر الإسلام والمسلمين على أعدائهم في فلسطين ولبنان وكافة بقاع العالم، وأن تعرف الأمة الإسلامية بقدر الإسلام ومنزلته، وأن تتصر شعبنا على أعدائه وتزيل من طريقه العقبات.

اللهم إنا نسألك بمحمد وآل محمد أن يحقق شعبنا آماله وأهدافه وأن تقهر أمامه أعداءه وتنزل بهم الهوان والخسران، وأن تقرب بين قلوب المسلمين في كافة أنحاء العالم وبين قلوب أبناء شعبنا والمسؤولين في بلادنا.

اللهم أحينا على نهج الإمام الحسين وأمتنا على نهج الإمام الحسين، وأرض عنا قلب ولي العصر واجعلنا من جنده وعساكره، وأرض عنا أرواح الشهداء الأبرار وروح إمامنا العظيم.

اللهم ارحمنا وارحم آبائنا وأمهاتنا وذوي أرحامنا.

بسم الله الرحمن الرحيم

<قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد>.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الخطبة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين نحمده ونستعينه ونستغفره ونؤمن به ونتوكل عليه ونصلي ونسلم على حبيبه ونجيبه سيد الأنبياء والمرسلين أبي القاسم المصطفى محمد وعلى آله الأطهرين الأطيبين المنتجبين سيما علي أمير المؤمنين والصديقة الطاهرة سيدة نساء العالمين والحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة وعلي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وموسى بن جعفر وعلي بن موسى ومحمد بن علي وعلي بن محمد والحسن بن علي والخلف القائم المهدي حججك على عبادك وأمنائك في بلادك، وصلّ على أئمة المسلمين وحماة المستضعفين وهداة المؤمنين.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله.

الوحدة قوام الأمن

أوصيكم ونفسي أيها الإخوة والأخوات الأعزاء بتقوى الله واتباع أمره ونهيه.

إنّ الموضوع الذي أودّ التحدّث عنه في الخطبة الثانية نابع من الإحساس بضرورة التفاف شعبنا ومجتمعنا اليوم حول محور الوحدة والانسجام كما أرى.

لقد قلنا في مستهل هذا العام: بأن "الوحدة الوطنية" و"الأمن القومي" هما شعار العام، وإذا أخذنا بنظر الاعتبار أوضاع البلاد والقضايا المحلية والدولية، فإن ما ينبغي على المسؤولين والشعب هو تحقيق هذين الشعارين كل حسب استطاعته؛ فإذا تحققت الوحدة الوطنية والأمن القومي فسيكون بإمكان الحكومة تنفيذ مشاريعها والقيام بمسؤولياتها وواجباتها الكبرى، وإنجاز برامجها البناءة ورفع المستوى الاقتصادي، وتوفير فرص العمل ومتابعة قضايا الحياة اليومية لأبناء الشعب وكذلك الشؤون الثقافية، فلو لم تتحقق الوحدة الوطنية والأمن القومي لبرزت الخلافات والمشاكل وساد التوتر السياسي، وستكون الحكومة أول من يتلقّى الصدمة؛ لأنها لا تستطيع أداء مهامها؛ وإذا لم تقم الحكومة بواجباتها فإن الشعب والطبقات المستضعفة والشباب والذين ينتظرون إنجازات الأجهزة المسؤولة سيؤول وضعهم إلى التردّي، ومن هنا تتضح أهمية هذين الشعارين.

إنني أؤكد كثيراً على "الوحدة الوطنية" لأن الأمن يقوم على الوحدة؛ وبدون الوحدة يصبح الأمن القومي في معرض الخطر وتعمّ الفوضى، فماذا نعني بالوحدة؟ هل نعني بها أن يفكر الجميع بأسلوب واحد؟ كلا، أو أن يكون للناس ذوق سياسي واحد؟ كلا، أو أن يُجمع الناس على أمر واحد وشخص واحد وشخصية واحدة وجناح واحد وتنظيم واحد؟ كلا، فالوحدة لا تعني هذا.

إنّ وحدة الشعب تعني الابتعاد عن التفرقة والنفاق والنزاع والصراع، حتى إنّ الوحدة أيضاً هي بإمكان مجموعتين مختلفتين في العقيدة الدينية، التضامن معاً وتجنب التناحر. إنّ ما يمس تلك الوحدة هي تلك المفاهيم الخاطئة التي تُلقى دائماً في أذهان الناس، فكل واحد تفسير وتحليل، وطائفة هنا وأخرى هناك، وبذلك تبرز الضجة والخلافات التي لا داعي لها! وطبعاً فإنّ العدو يستفيد من كل ذلك، ومن المحتمل جداً أن تكون له يد في هذه الأمور — إما في كلها أو في بعضها — أي إنه ليس باستطاعتنا تجاهل ذلك. إنّ البعض باتوا مصابين اليوم — وللأسف — بالحساسية؛ فبمجرد ذكر كلمة العدو تجدهم يغضبون ويحتجّون على ذكر اسمه! إنه عدو، ولا يمكنكم تجاهل العدو. إنّ أحداً لن يحترم شعباً أو مجموعة؛ لأنها تجاهلت عدوها وتعامت عن خناقه وبنادقه ولم تترك مؤامراته.

إنّ العدو يقول هو نفسه: بأنه يخصّص ميزانية لإيجاد الاضطرابات في إيران، وأنه يفتح الإذاعات لتأزيم الأفكار في إيران، وأنه يطمح إلى تقسيم الشعب الإيراني إلى حزبين، ثم نأتي نحن لنقول لا! أليست هذه سذاجة؟! ولهذا فإنّ العدو متوسط في كل هذه الأحداث.

وإنّ العدو لن يجني أية ثمار مادامنا نحن متيقّظين وحريصين وبعيدين عن الخطأ. إذاً فإنّ خطأنا وغفلتنا وتقصيرنا — كلها — جزء مهم وعنصر أساسي في نجاح العدو.

نماذج من التاريخ

إنني سأعود للتاريخ وأستخرج لكم نموذجين، حتى تتبيّنوا كيف أن هذه المفاهيم الخاطئة بإمكانها تقسيم المجتمع إلى فئتين:

الأول: في حرب صفين؛ فبعدما تغلّب جيش أمير المؤمنين على جيش معاوية، فإنّ معاوية وأتباعه رفعوا المصاحف على أسنة الرماح¹⁰، فوجدوها قد أحدثت خلافاً بين جنود أمير المؤمنين، حيث إنّ هذه الحركة تعني أن القرآن بيننا وبينكم، فانهار البعض قائلين: لا طاقة لنا بمحاربة القرآن! في حين قال البعض الآخر: بأن أساس قتال هؤلاء هو ضد القرآن، فرفعوا القرآن شكلاً لكنهم يحاربون معناه وهو أمير المؤمنين. وفي النهاية دبّ الخلاف بين صفوف جيش المسلمين ففرّقوا وضعفوا، وكانت هذه هي حيلة العدو.

¹⁰ تاريخ الطبري: ج4، ص34.

وأما النموذج الثاني: فهو أيضاً من نفس هذه الحرب، فعندما ألزموا أمير المؤمنين بقبول التحكيم، برزت طائفة من داخل معسكر المؤمنين — وكانت من جماعته — ورفعت شعار " لا حكم إلا لله" ¹¹ .

وواضح أنه لا حكم إلا لله كما ورد في القرآن الكريم، فماذا أرادوا أن يقولوا؟ لقد أرادوا بهذا الشعار خلع أمير المؤمنين من الخلافة! ولكن أمير المؤمنين كشف النقاب عن خطّتهم، وقال: إن الحكم والحكومة لله، ولكنهم لم يعنوا ذلك، بل عنوا "لا إمرة إلا لله"، أي أنه لا داعي لوجود أمير المؤمنين، بل إن على الله أن يأتي متمثلاً ومجسداً ليدبر شؤونكم! فهذا الشعار أخرج مجموعة من معسكر أمير المؤمنين، فالتحقت بذلك الفرقة الجاهلة الضالة السطحية وربما المغرضة، ومن هنا نشأت قضية الخوارج.

رأي الإسلام في العنف

إنّ هذه الأحداث تقع الآن بيننا وللأسف؛ فثمة شعارات تُرفع، بعضها واضح وجيد، ولكن العدو يستغلها.

وإنني سأحدّث اليوم عن مصطلحين، راجياً بذلك ألا يستطيع ذوو القلوب المريضة التفريق بيننا وبين أبناء الأمة الإسلامية بعد اليوم أبداً، فأحدهما "العنف" والثاني "الإصلاح"، فما هو المقصود بالعنف؟

إنّ العنف هو: القتل والضرب والسجن وسوء الخلق والحدّة، وهو أمر واضح ومعنى بديهى. وهناك سؤال مازال يثار في صحفنا منذ بضعة أشهر، حول ما إذا كان العنف أمراً جيداً أم سيئاً، أو ما إذا كان هذا الشخص يقبل العنف وذلك الآخر يرفضه، أو ما إذا كان الإسلام يقول به أو لا يقول به! فهل هذا الموضوع معقد هكذا وبالعالمية، أو أن هناك نوايا أخرى خلف الستار؟!

إنّ للإسلام رأياً واضحاً وصريحاً حول العنف؛ فالإسلام لم يجعل العنف أصلاً من حيث المبدأ، ولكنه لم ينفه أيضاً في الحالات التي يكون فيها قانونياً.

إنّ لدينا نوعين من العنف، أحدهما: قانوني، أي أن القانون يستخدم العنف عند الضرورة، فينص على حبس هذا الشخص إذا ارتكب هذه الجناية أو الجريمة؛ فهذا عنف، لكنه ليس سيئاً؛ لأنه يحول دون الاعتداء على حقوق البشر، ويقمع الخارجين على القانون ويجازي المعتدي، فإذا لم يستخدم العنف ضد المعتدين لازدادت الجرائم في المجتمع، فهو ضروري في هذه الحالة، والثاني: عنف غير قانوني، أي أن يعتدي أحد

¹¹ تاريخ الطبري: ج4، ص39.

على حقوق الآخرين كما يهوى وبلا سبب ولا دليل وخلافاً للقانون والدستور، كأن يصفع شخصاً، فهل هذا جيد أم سيئ؟! واضح أنه سيئ وبلا شك.

إنّ الإسلام يصف سلوك الرسول (ص) وخلقه الشخصي، فيقول «فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك»¹².

كما يقول القرآن الكريم في موضع آخر مخاطباً النبي (ص): «يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم»¹³.

فالجذر الثلاثي "غلظ" الذي ورد في الآية السابقة جاء في هذه الآية أيضاً، سوى أن الآية الأولى تتحدث عن طبيعة التعامل مع المؤمنين وعن السلوك الفردي، وأما الثانية فتدور حول تطبيق القانون وإدارة المجتمع واستقرار الهدوء والنظام؛ فالغلظة في الأولى أمر سيئ، لكنها أمر جيد في الثانية، أي أن العنف سيئ في الأولى وجيد في الثانية.

لقد دخل الرسول (ص) مكة فاتحاً، والتقى أولئك الذين آذوه وكذبوه على مدى ثلاثة عشر عاماً وجروا عليه كافة أنواع الويلات، ولكنه خاطبهم قائلاً: اذهبوا فأنتم الطلقاء .. ولم ينتقم منهم. وفي نفس الوقت فإنه (ص) ذكر جماعة بالاسم وقال اقتلوهم حيث ثقتهم! وكان من بينهم أربع نساء وأربعة رجال، فها هنا كان يلزم العنف، وأما هنالك فالرفق واللين.

إنّ الإسلام يوضّح الآثام والذنوب، فيقول لا تتجسسوا، ولا تتبعوا عورات الآخرين وخطاياهم، ولا تتهموهم ظلماً وعدواناً.

ولكن عندما تثبت الجريمة فإنه يقول: «ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله»¹⁴.

فالإسلام دين شامل وليس أحادي الجانب؛ فعندما تقف الحكومة الإسلامية لمواجهة القوة والاعتداء والاضطرابات والهجمات والخروج عن القانون فلا بدّ لها من القوة والصرامة والعنف دون خشية من هذه الكلمة.

وبالعكس، أي عندما تتعامل مع أفراد الشعب والرعيّة، فعليها بالرفق واللين >عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم»¹⁵؛ فلكل مقام مقال.

وعندما توجه الرسول (ص) إلى مكة في العالم الثامن للهجرة في حجّه الأخير — حجة الوداع — فإن أمير المؤمنين كان على رأس بعثة في اليمن لتعليم أهله الدين وجمع

¹² سورة آل عمران، الآية: 159.

¹³ سورة التوبة، الآية: 73.

¹⁴ سورة النور، الآية: 2.

¹⁵ سورة التوبة، الآية: 128.

أموال الزكاة، فكان من بينها عدد من البُردات اليمينية، وهو نوع من الألبسة اليمينية الممتازة والمفضلة يومذاك.

ولم يكن لدى أمير المؤمنين الوقت الكافي ليتحرك مع هذه القافلة، فوضع عليها أحد الأشخاص وأمره بالمجيء بهذا المتاع، وأسرع هو للالتحاق برسول الله (ص) ليكون معه في أداء مناسك الحج.

فلما وصلت القافلة إلى مكة ذهب أمير المؤمنين ليستطلع أمرها، فاكتشف عدم وجود تلك الألبسة اليمينية وأنهم قسموها فيما بينهم في غيابه، فارتدى كل واحد منهم بردة له! فقال ليس من الجائز تقسيمها قبل وصولها إلى رسول الله (ص) — وبتعبير آخر وصولها إلى الخزانة كما هو الحال في زماننا هذا — وإن هذا خلاف الشرع والدين! فأمرهم بخلعها، ومن لم يشأ تسليمها أخذها منه بالقوة. وبالطبع فإن المرء سيشعر بالضيق إذا جُرد من شيء ما إلا إذا كان شديد الإيمان؛ فذهب بعضهم إلى رسول الله (ص) واشتكوا إليه أمير المؤمنين! فسألهم ماذا حدث، ولماذا هذه الشكوى؟ فأجابوا لقد جردنا أمير المؤمنين من تلك الملابس.

فقال لهم رسول الله (ص): لا تلموا عليّ على ذلك "إنه خشن في ذات الله"¹⁶. فالعنف القانوني هو ذلك الحد الذي يشرّعه الإسلام؛ وهو أمر ضروري فضلاً عن أنه جيد.

وأما العنف غير القانوني فهو جريمة فضلاً عن أنه سيّئ، وينبغي مواجهته، وهذا هو رأي الإسلام؛ فلا نقاش فيه ولا جدال حتى يأتي البعض بدون معرفة بالأسس الإسلامية وعلم بحقيقة الأمور ويملأوا صفحات بعض الصحف بعناوين بارزة ومثيرة ومبهرة ومضلّلة! وبالتأكيد فإن الأعداء الذين يريدون إشعال الساحة بنار البحث والجدال حول هذا الموضوع لهم أهداف أخرى.

إنهم يعتبرون العنف أمراً كلياً، ولا يفرّقون بين العنف القانوني وغير القانوني، وليسوا على وفاق مع العنف القانوني؛ وهم يقولون إذا أثار أحد الاضطرابات في شوارع طهران، وسلب الناس أمنهم وراحتهم، وبدد أموالهم، وعرض أبناءهم للخطر، فلا تصطدموا به؛ لأن هذا عنف، بينما هم يمارسون أشد أنواع العنف والوحشية في كافة أنحاء العالم! إن الكيان الصهيوني — الذي تعتبر إذاعته من مروجي معارضة العنف والتي ترفع باستمرار ذلك شعاراً — يقصف جنوب لبنان كل يوم فيقتل النساء

والأطفال والكبار والصغار، وهكذا يفعل أيضاً رفاقهم في كافة بقاع العالم وهم الذين يسيطرون على وسائل الإعلام العالمية!

إنني لا أنسى ألّمي الشديد منذ عام ونصف لدى اغتيال الشهيد لاجوردي¹⁷، ذلك الشهيد الرفيع المنزلة والسيد العزيز العظيم والرجل صاحب الشخصية البارزة والذي قدّم الكثير في مرحلة النضال السلبي والقمع، وهم لا يدرون كم عانى هذا الرجل، وكيف عاش، وكم تحمّل من آلام السجن والاعتقال وكم قاسى من الشدائد، وكيف أنه تقبّل الكثير من المسؤوليات الصغيرة في ظاهرها والعظيمة والشاقة في حقيقتها بعد انتصار الثورة، ثم ختم جهاده بالشهادة.

ومع هذا فإن إحدى الصحف الألمانية تكتب في تلك الأيام وتقول: إن اغتيال لاجوردي ليس اغتيالاً! أي أنهم حرفوا أيضاً معنى الاغتيال، فلماذا؟! لأن الذي قام به هم المتمرّدون في الداخل! وهكذا هي وسائل الإعلام العالمية حيث تسيطر الإمبراطورية الإستكبارية الخبرية على اتجاه الرأي العام العالمي وأفكاره.

فكفاح الشعب الفلسطيني من أجل استرداد أراضيه المغتصبة يعتبر إرهاباً، ونضال الشعب اللبناني لطرد المحتلّين الصهاينة من أرضه يعدّ إرهاباً، وأما دخول المجرمين الصهاينة إلى لبنان وقيامهم بعمليات الاختطاف والقتل وهدم القرى فليس إرهاباً! إنّ هذا هو منطقهم، فيجب أن لا يخدعنا العدو بما يبيّنه من دعايات، بل علينا أن نفكر ونستخدم عقولنا.

إنّ الاستقلال الفكري هو أسمى مظاهر استقلال الإنسان؛ فانظروا ماذا يقول الإسلام، وتدبّروا المنطق السليم، هل العنف سيئ أم جيد؟ والجواب هو أنه ليس سيئاً ولا جيداً، وهو أيضاً سيئٌ وجيد في نفس الوقت.

¹⁷ الشهيد السيد أسد الله لاجوردي ولد في طهران عام (1314هـ ش) كان أبوه؛ السيد علي أكبر، بائع حطب، وفي عام 1320هـ ش، ترك مدينة (شهر يور) وسجّله أبوه في إحدى مدارس طهران وهي السنة التي حدث الهجوم الروسي والانجليزي على إيران من الشمال والجنوب، بعد سنتين من الدراسة في المرحلة الإعدادية، ترك السيد الدراسة وانخرط في سلك العمل مع والده. درس الشهيد لاجوردي في "مسجد الشيخ علي" الأدب العربي بشكل جيد، والعلوم الحوزوية إلى حد "الكفاية". ونظراً لما كان يتصف به من نكاه وفطنة أخذ يفسر القرآن في المجالس التي كان هو من جملة مؤسسيها. شارك الشهيد آية الله بهشتي والشهيد مرتضى المطهري في تنظيم النضال ضد النظام الشاهنشاهي. دخل السجن عدة مرات وأطلق عليه لقب "رجل السجون الفولاذي". وعذب أشد التعذيب حتى كسر ظهره. وبعد انتصار الثورة الإسلامية تولى مسؤولية الادعاء العام، ومسؤولية السجون في البلاد. وفي عام 1377هـ ش نال وسام الشهادة في عملية اغتيال بعد عمر من الجهاد والتضحية.

فالعنف القانوني جيد وضروري، وأما غير القانوني فهو سيئ وقبيح وإجرام. إنهم يثيرون هذا الموضوع يومياً؛ لكي يجعلوا الأجواء متوترة في البلاد، وهم دائماً وبلا نهاية ينقلون كلاماً عن هذا وكلاماً عن ذاك ويحرقون أقوال بعض الشخصيات البارزة ليقول أحد الشباب: إن العنف جيد، بينما يقول الآخر كلا، بل قبيح، ويتهم الواحد الآخر بالعنف، فيتهمه الآخر أيضاً بالعنف! فلماذا يفعلون كل هذا؟ إن شبابنا ليسوا من أنصار العنف، والمؤمنون والمتديّتون عندنا ليسوا من أنصار العنف، ولكن العنف سيستخدم عندما يقتضي القانون ذلك.

إن القانون قانون وليس أمراً خافياً، وعندما أصدر الرسول (ص) أوامره بقتل أولئك النفر فإنه لم يقل ذلك في الخفاء، بل صرّح به وأعلنه على الملأ، وقال من رأى هند فليقتلها، ومن رأى فلاناً فليقتله، كما أن الإمام الخميني (رضوان الله عليه) قال أيضاً من وجد سلمان رشدي فليقتله، والآن أيضاً فإن القائد إذا اقتضى الأمر ذلك فسيعلنه على رؤوس الأشهاد، ولن يفعله في الباطن ولا في الخفاء!

نعم للإصلاحات الثورية والإسلامية

وأما المصطلح الثاني فهو "الإصلاحات"؛ لقد كانت هذه الكلمة دائماً من المفردات البالغة الجاذبية؛ فالحكومة الجديدة طرحت قضية الإصلاحات منذ اليوم الأول لمجيئها، وكل من يعانون من تخفق أفئدتهم لهذه الكلمة ويناصرون الإصلاح. فالإصلاحات أمر جيد للغاية، ولكن ما معنى الإصلاحات؟ إن العدو يزجّ بنفسه أيضاً في هذا الموضوع، فينزل إلى الساحة بإمبراطوريته الخيرية والدعائية ليجعل لنفسه عناصر ترفع شعار الإصلاحات في الداخل، ومجموعة أخرى ترفع شعاراً مناهضاً للإصلاحات، فهل من الممكن أن يكون ثمة من يعارض الإصلاحات؟! نعم، فهذه هي مهمة العدو الذي يقوم بإثارة الشبهات وتعكير صفو الأجواء بغية حصد الثمار، وهو الذي لا يحب الإصلاحات.

إن الكلمة الفصل في هذه القضية هي: إما أن تكون الإصلاحات إصلاحات ثورية وإسلامية ودينية، يقبل بها كافة المسؤولين وجميع أبناء الشعب المؤمن وكل أصحاب الرأي والنظر، وإما إصلاحات أمريكية يرفضها جميع المسؤولين وكافة المؤمنين وكل أبناء هذا الشعب الواعي.

لقد وردت تعبيرات عن الإصلاح في كلام الإمام الحسين (عليه السلام) عندما قال "خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي"، حيث كان يدعو إلى الإصلاح ويسعى إلى

تحقيقه، كما يقول في موضع آخر "النري المعالم من دينك ونُظهر الإصلاح في بلادك"¹⁸؛ وهذا هو شعار الإمام الحسين.

فما معنى الإصلاح؟ إنّ الإصلاح هو تغيير كل ما هو خرب وناقص وفساد إلى ما هو صحيح.

فالثورة نفسها هي إصلاح عظيم، ومع أنهم يصنّفون "الثورة" في المصطلحات السياسية في مقابل "الإصلاح"، إلّا أنني لا أريد التحدّث عن الإصلاح طبقاً لهذا المصطلح، بل طبقاً للمصطلح الإسلامي؛ إنّ الثورة نفسها هي من أعظم الإصلاحات؛ وإن تواصل الإصلاحات كامن في ذات الثورة وهويتها، فكل شعب ثوري وواع وشجاع ينظر بشكل دائم ليرى ما هي مخلفات الفساد التي مازالت باقية فيه مما سبق، وما هي أنواع هذا الفساد التي نشأت نتيجة الغفلة وسوء الإرادة والتدبير والمخالفات حتى يقوم بإصلاحها، وما هي الأخطاء حتى يقوم بتصحيحها.

إنه لا إمكانية للثورة بلا إصلاح، ولا وجود لمجتمع إنساني بدون إصلاح؛ لقد كان الجميع يحلمون بالإصلاحات منذ بداية الثورة، وقدم كل واحد ما كان بوسعه.

واليوم أيضاً جاءت حكومة ورفعت "الإصلاحات" شعاراً لها؛ إنه لأمر جيد، وإنني أعلم بأن مسؤولي هذه الحكومة الذين يرفعون شعار الإصلاح — ومن بينهم رئيس الجمهورية المحترم — ماذا يقصدون بهذه الإصلاحات؛ فهم يقصدون بها الإصلاحات الإسلامية.

ومن البديهي فثمة بعض الأمور التي ينبغي إصلاحها في المجتمع؛ فنحن بحاجة إلى الإصلاح الإداري، وبخاصة إلى الإصلاح الاقتصادي، وبخاصة إلى الإصلاح القضائي، وبخاصة إلى الإصلاح الأمني، وبخاصة إلى الإصلاح في القوانين والمقررات، إننا بحاجة إلى أن يمتلك جهازنا الإداري مقررات تنطبق على الجميع بلا فرق بين شخص وآخر، فلو لم يكن كذلك لكان هناك موضع فاسد ويجب إصلاحه.

إنه ينبغي القضاء على الرشوة والارتشاء الذي لو وجد لكان فساداً وينبغي إصلاحه. إنه لا سبيل للحصول على الثروة سوى الطرق المشروعة، فلو اكتسب واحد ثروة بغير الطرق المشروعة لكان هذا فساداً ولا بدّ من إصلاحه، وإذا استغل أحد ما لديه من امتيازات للحصول على الثراء الفاحش على حساب الآخرين من الفقراء، فإن هذا فساد ويجب إصلاحه.

وإذا خصّوا أنفسهم بالامتيازات دون أن يستطيع الجميع الاستفادة من الفرص السانحة، فإن هذا فساد ولا بدّ من إصلاحه في المجتمع، وإذا لم يتحقق الأمن والاستقرار في العمل والثبات في القوانين والمقررات، وإذا لم يعطوا الفرصة لمن يريد أن يعمل وسدّوا عليه طرق العمل والسعي، فكل هذا فساد وينبغي إصلاحه، ولو ارتفع مستوى الاستهلاك دون الإنتاج في المجتمع، فإن هذا أيضاً من الفساد، ولو فضّلوا السمسرة على الإنتاج في المجالات الاقتصادية، فإن هذا فساد، ويجب إصلاح كل ذلك؛ وهذه هي الإصلاحات.

ولو خيم عدم الانضباط على الجماهير، أو ساد عدم الانضباط في أوساط الدوائر الحكومية بشكل خاص ولم يعد هناك انضباط في المجتمع فإن هذا فساد، وإذا لم يعد هناك إحساس بالمسؤولية فهو أيضاً من الفساد، وإذا لم يُنمّوا الملكات الإنسانية في الشباب من قبيل الشجاعة والإخلاص والصدق والنشاط والحركة، فإن هذا فساد، وإذا ظهرت العلاقات الجنسية اللامشروعة في المجتمع، فهذا فساد، وكذلك إذا ظهر الإدمان على المخدرات في المجتمع فهو فساد، وإذا لم يكن مستوى المعرفة والحس العام بالحد المطلوب فهذا فساد، وإذا فقد المسؤولون الشعور بأداء الواجب فهذا فساد، وإذا كان هناك من يعكّر صفو الحياة العائلية، أو يبيث الفوضى والاضطراب في المدن والشوارع والطرق والقرى، فهذا فساد بالنسبة للبلاد، ولو انتشر الإجرام ولم يكن القضاء عادلاً، وإذا طالت مدّة التحقيقات القانونية وتفاعس المسؤولون عن النظر في الملفّات القضائية، فإن هذا فساد ويجب إصلاحه، وينبغي الوقوف بوجه الإجرام.

إنّ الثورة توجب علينا القيام بهذه الإصلاحات وتأمّرها بذلك؛ وإن الجميع مسرورون ويحبون أن تعمّ هذه الإصلاحات المجتمع، وبالتأكيد فإن هذه الإصلاحات لا بدّ من القيام بها دونما مجاملات، بل بعزم وتصميم.

لقد وجدنا أن المسؤولين الآن — سواء في السلطة التنفيذية أو القضائية — قد وضعوا الكثير من البرامج، وبذلوا شتّى الجهود في تلك المجالات المذكورة؛ حسن جداً، ولكن هناك بعض الأمور التي يعتبرها العدو إصلاحات؛ إنّ الأمريكيين يقولون بعدم ارتداء الحجاب الإسلامي، وكسر الحواجز الأخلاقية والدينية، والتخلّي عن القرآن وحكومته، وعدم تطبيق الأحكام الإسلامية — الذي هو جزء من الدستور — فهذه هي الإصلاحات في نظرهم! إنها إصلاحات أمريكية! إنّ ما حققه الشعب الإيراني لم يكن بالأمر اليسير؛ لقد استعاد الشعب الإيراني استقلاله ونضجه السياسي وشخصيته وعزّته، ولم يكن هذا شيئاً ميسوراً.

إنّ السلطويين والمستكبرين في العالم يبذلون شتى مساعيهم لتوسيع رقعة نفوذهم وتحقيق المزيد من مصالحهم.

ولو قيل لهم: ماذا تفعلون هنا في الخليج الفارسي، وأين بلادكم من الخليج الفارسي؟! فإنهم يقولون: إنّ لنا مصالح هاهنا! فيا للعجب، وإذا اقتضت مصالحكم تجييش الجيوش فهل لا بدّ لكم من ذلك؟! وهل تقنّمون مصالحكم وتفضّلونها على مصالح الشعوب؟! إنّ تلك القوى تفعل كل ما تفعل من أجل تحقيق مصالحها فحسب؛ فلو دعموا شعار الإصلاح فهذا كذب، لأنهم لا يدعمون ولا يناصرون الإصلاحات بمعنى الكلمة، وإنهم ضد الإصلاحات في بلدنا هذا، إنهم ضد الثورة من الأساس، وهم لا يريدون سوى القضاء على روح الثبات والاستقلال في هذا الشعب، وإنهم يرفعون الشعارات، ويطلقون المصطلحات، فيأتي البعض ليكرر ما يقولون.

وفي الحقيقة فإن هذه في حدّ ذاتها قصة مؤلمة ولا أريد الخوض فيها الآن؛ فعندما نجد أن البعض يتقون بالأعداء أكثر من الأصدقاء، وتتفرّج ملامحهم أكثر أمام الأجانب دون الأصدقاء، ويكررون كلام الأجانب رغم الأصدقاء، فإنها حقيقة لقصة محزنة وحكاية مريرة لا أريد الحديث عنها اليوم، ولكنني لن يكون بوسعي سوى إطلاعكم على هذا الموضوع يا أبناء الشعب الإيراني في النهاية. وسيأتي ذلك اليوم الذي أكشف النقاب فيه عما يفعله البعض في هذا البلد لصالح الأعداء وضد الشعب، ولصالح المعتدي وضد المظلوم! ولكن لم يحن أوان ذلك بعد.

حذار من أن يخدعكم العدو

إنّ الذي أودّ قوله في ختام هذا البحث اليوم هو أن "اتقوا الله" يا أبناء الشعب الإيراني ويا أيها الشباب الأعزاء ويا أيها المثقفون ويا أيها التجمّعات السياسية! خافوا الله واجتنبوا ما نهى عنه.

إنّ الرسالة العظيمة لصلاة الجمعة كل أسبوع، هي التقوى، وإنّ تقوى الله هي ألاّ يخدعنا العدو وألاّ نستسلم لضغوطه.

إنّ العدو يطمع في زرع الفرقة و الخلاف بيننا، وإنه يتمنّى أن تكون هناك خلافات بين المسؤولين، ويتمنّى أن تنشب حرب أهلية في إيران، إنّ العدو لا يستطيع أن يرى الجمهورية الإسلامية وقد حققت الأمن والاستقرار لهذا البلد. وإنّ جهل البعض، أو اتّباعهم للأهواء النفسية وقيامهم بما ينغص الأمن والاستقرار في أي مكان وبأية ذريعة لمن الأمور التي تدخل السرور على قلب العدو، وكمثال على ذلك ما حدث في بعض المدن بمناسبة الانتخابات نتيجة الجهل أو الهوى، وهو ما لم يكن ينبغي أن يحدث.

إنّ من يريد الاعتراض على أي شيء فأمامه الطريق القانوني، وإن تهشيم الزجاج وإشعال الحرائق والغارة على الأموال الحكومية والخصوصية ليست كلها بالطريق الصحيح ولا المتعلّق، وليس ثمة من يمتدحه، وحينما وقع شيء تافه من هذا القبيل فإن أجهزة العدو الدعائية عملت على إبرازه وتضخيمه وتكراره وتشجيعه! نعم، فالعدو يشجّع عدم الأمن.

لقد وقعت بعض الاضطرابات والجرائم في شوارع طهران الصيف الماضي؛ مما أخلّ بالأمن والاستقرار، فجاء العدو وشجّع ذلك! فلو تعامل الجهاز القضائي بشكل قاطع وقانوني مع أولئك المجرمين ومثيري الشغب، فإن العدو يشنّ هجوماً دعائياً ضده، ولا ينبغي أن يخدعنا العدو.

إنني أناشد كافة التنظيمات والتجمّعات وجميع أبناء الشعب الإيراني وكل الشباب، الذين نالوا رضا الله بما قاموا به من دور في كل الأحوال، بأن يكونوا جميعاً على حذر من أن يخدعهم العدو.

إنه لا عتاب الآن ولا شكوى من الشعب، بل الشكوى من أولئك الذين يجدر بهم توجيه الرأي العام، ولكنهم لا يقومون بواجبهم أو أنهم لا يعرفونه.

إنّ وحدة الشعب وتضامنه القلبي والروحي ومحبته ووفائه حول النظام الإسلامي وأحكام الإسلام المقدسة والدستور — الذي يتطابق بدوره مع الأحكام الإسلامية — وحول قوانين البلاد — التي يتطابق أغلبها إن لم نقل كلها مع القوانين الإسلامية — كلها أمور لا تنفك عن "الوحدة الوطنية".

نسأل الله تعالى أن يمنّ علينا بفضله وبركاته، وأن ينظر ولي العصر (أرواحنا فداه) بعين العطف إلى هذا الشعب إن شاء الله حتى يستطيع استثمار كل هذه التجارب العظيمة، ويتمكّن المسؤولون من القيام بكافة الإصلاحات — أي الإصلاحات السليمة والإسلامية والثورية والدينية — على أفضل وجه وينفعوا بها الجماهير الشعبية.

بسم الله الرحمن الرحيم

«والعصر * إن الإنسان لفي خسر * إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر».

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته